تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

مشكلة الفن والقيود :

... ...

« لا يحيا الفن بغير القيود » ، مثل مشهور تتباه فريق من أدباء فرنسا وشايعهم فيه أنصار من مختلف بقاع الأرض . وأرى أنه ينطوى على شىء كثير من الخطأ والضلال ، لأن إخضاع الفن للقيود يعنى تقنينه وربطه بقواعد وأصول ، وهذا يناقى طبع الجمال الذى هو غاية الفن وطابعه الرئيسى . ولو طبقنا المثل نفسه على الشعر العربى مثلا لا نعكست الآية وانقلب المفهوم رأساً على عقب فما لا شك فيه أن القافية كثيرا ما تسوق الشاعر مرغما إلى معنى لا يرتضيه ولكن ارتضته القافية ، ومعنى هذا أن القافية تخطى الشاعر كلاما لم يقصد اليه ولم يهدف إلى معناه ، وما لا يقصده الشاعر ولا يهدف اليه يكون حتما خيلا عليه فلا يرتضيه ولا يطمئن اليه ، وفى هذا قال شاعرنا العربى عبارته الخالدة « ما أرضاه من شعرى لا يأتينى وما يأتينى منه لا أرضاه »

حقا إن القافية تبتكر معنى جديدا لم يخطر ببال الشاعر ، ولكن العبرة ليست فى تغيير المعانى وتزاحمها وإنما فى قوتها وروعتها وجمالها ، وكلها صفات لا تجتمع للمعنى الذى تبتكره القافية ، إلا عن طريق الصدفة ، والتعويل على الصدفة عند تكوين حكم عام عن الفن ، أمر يناقى الحكمة ويجافى المنطق ... ألا ترى معى بعد هذا بأنه ليس من المتصور أن تحيى القيود الفنون مادام القيد ينزع بطبعه إلى التحكم ؟

هذا ما وددت أن أعرف رأيك فيه ... ولك منى خالص الشكر والتحية .

فؤاد الونداوى الحامى

« بغداد — العراق »

يريد الاستاذ الفاضل فؤاد الونداوى أن يعرف رأينا فى هذه المشكلة الفنية التى يعرض لها فى رسالته ، ونعنى بها مشكلة الفن والقيود . ويبادر هو فيحكم على المثل الذى ينادى بألا حياة للفن إلا فى ظل القيود ، يبادر فيحكم عليه بأنه ينطوى على شىء كثير من الخطأ والضلال ، لأن إخضاع الفن للقيود فى رأيه يعنى تقنينه وربطه بقواعد وأصول ، وهذا يناقى عنصر الجمال الذى هو غاية الفن وطابعه .

هذا هو رأى الأستاذ الونداوى . وخلاصته أنه يريد أن يحرر الفن من كل قيد وأن يعفيه من كل قانون ، ليصل من وراء هذا كله إلى تحقيق ذلك العنصر الرئيسى فى الفن ، ونعنى به عنصر الجمال ... ومن هذا الرأى الذى يجهر به الاستاذ الونداوى نخرج بأن مضمون نظرته وجوهر دعوته يلتقيان حول معنى واحد : هو أن الجمال فى الفن عماده الحرية

نود أن نقول للاستاذ الونداوى إن إطلاق حكم عام على مشكلة من مشكلات الفن يتطلب شيئا من التريث وأشياء من المراجعة . ولو تريث الاستاذ فى دراسة المشكلة وراجع نفسه

ان خطوط أصبعى ليس من أصلى أعزا .

اخفضرا الصوت يا حداة حيثما مدفنى يكون
فلقد يقلق الرفات من صدى رنة الجفون
كيف لو ضج بالبنات هودج الزهو والفتون
وحدا الظعن للفتاة وهى ليست مع الظعون
وهى قيثارة الحياة وهى عكازة المنون
فوعى الصخر والنبات قيمة الصمت والسكون؟

مفشد الظعن والكثيب هل خطى الفوق تفهم؟
أنت بين الورى غريب لوح بجواك طلسم
مثل أمنية الرقيب وأسى الطير مبهم
كل أرض بدون طيب لك فيها نخيم
كل جنينة تشيب من صحاريك تنقم
كل ما صور المغيب بعض ما أنت ترسم ...

يوسف عمار

عند إصدار حكمه ، لأدرك أن تحرير الفن من كل قيد معناه الحرية المطلقة ، وأن الحرية المطلقة ليست هي الجمال الذي يتطلع اليه ! إننا حين نفرض القيود على الفن فانما نفرضها بغية أن تبث فيه روح النظام . وما هو الجمال في الفن إذا لم يكن هو النظام على التحقيق ؟ وحين نرفض الحرية المطلقة في الفن فانما نرفضها خشية أن تبث فيه روح الفوضى . وما هو القبح في الفن إذا لم يكن هو الفوضى بلا جدال ؟ لابد إذن من قواعد وأصول حين نحتاج في « تنظيم » الفن إلى تلك القواعد والأصول ، ولا بد إذن من القيود التي تقررها المقاييس النقدية لتحديد القيم الجمالية . ومع ذلك فنحن لا ننكر الحرية التي تتيح للفن أن يتنفس ليكون فنا ، ولكنها الحرية المعقولة غير المطلقة ، تلك التي تعمل في مجالها الطبيعي حيث قدر لها أن تكون ! هناك إذن قيود مفروضة وقيود مرفوضة . أما تلك القيود المفروضة فقد حددناها في مذهب (الأداء النفسي) ، وهو مذهبنا في نقد الفنون عامة وفي نقد الشعر على الأخص ، ولا بأس من أن نعيد اليوم بعض ماقلناه بالأمس ، مادام الأستاذ الوتداوي يريد أن يعرف رأينا في مشكلة الفن والقيود .

في القصيدة الشعرية ، وفي اللوحة التصويرية ، وفي القطعة الموسيقية ، وفي كل عمل يمت إلى الفن بسبب من الأسباب ، يحسن بالفنان ، بل يجب عليه ، أن يكون له هدف .. هذا الهدف لا بد له من تصميم ، ولا بد له من خط سير ، ولا بد له من خطوات تتبع خط السير وتعمل في حدود التصميم . ذلك لأن الفن في كل صورة من صوره يجب أن يعتمد أول ما يعتمد على تلك الملكة التي نسميها « ملكة التنظيم » ، وكل فن يخلو من عمل هذه الملكة التي تربط بين الظواهر ، وتوفق بين الخواطر ، وتنسق المشاهد ذلك التنسيق الذي يضع كل شيء في مكانه ؛ كل فن يخلو من عمل هذه الملكة لا يعدفنا ، بل هو « فوضى فكرية » أساسها وجدان مضطرب ، وذهن مهوش . ومقاييس معقدة أو مزلزلة . وأبلغ دليل على تلك الفوضى الفكرية في بعض ما نشاهده من آثار تنسب ظلما إلى الفن ، هو تلك الحركة السريالية التي هبطت إلى ميدان الشعر كما هبطت إلى ميدان النحت والتصوير والقصة ، فعبثت بكل الأنظمة والمقاييس التي تطبع الفن بطابع الاتصال والوضوح والدقة والوحدة والنظام — مثل هذه الحركة في الفن ليس لها هدف ولا تصميم ولا خط سير ، وإنما هي أخلاط من الصور وأشتات من الأحاسيس لا يربط بينها رابط ولا تحدها حدود ! وشبيه بتلك الحركة في جنايتها على معايير الذوق وموازين الجمال كل حركة أخرى تمضي بالفن إلى غير غاية ، هناك حيث تفتقر بعض الأذهان إلى تلك « الملكة التنظيمية » التي تلائم بين الجزئيات وتوائم بين الكليات ، وتفصل ثوب التخيل على جسم الفكرة بحيث لا ينقص منه طرف من الأطراف ولا يزيد .

تريد من الفنان سواء أكان شاعرا أم مصورا أم موسيقيا أن يخلق نموذجه الفني على هدى تصميم يرسم « أصوله وقواعده » قبل أن يبدأ عمله وقبل أن يمضي فيه وقبل أن ينتهي منه . تريد أن يكون بين يديه هذا التصميم الفني الذي يأمره بالوقوف عند هذا المشهد ، وبالتقاط الصورة من هذه الزاوية ، وبتركيز الانفعال في هذا الوطن من مواطن الإثارة . عندئذ نوجد « نظاما » ، وإذا ما أوجدنا النظام فقد خلقنا الجمال ، وإذا ما خلقنا الجمال فقد قمنا ببناء الفن . هذا التصميم الذي ندعو إليه ينظم هيكله العام أصول الأداء النفسي في الشعر والتصوير والموسيقى . هناك حيث تتوقف قيمة الفنان على مدى خبرته بتلوين الألفاظ والأجواء في الميدان الأول ، وتوزيع الظلال والأضواء في الميدان الثاني ، وتوجيه الأنغام والأصوات في الميدان الأخير . ولابد للأداء النفسي في الشعر من هذا « التصميم الداخلي » . لا بد من جمع أدوات العمل الفني وترتيبها في ذلك المستودع العميق ، مستودع النفس ، قبل أن ندفع بها إلى الوجود كائنا حيا مكتمل الخلقة متناسق الأعضاء .. إننا ننكر ذلك الشعر الذي تكون فيه القصيدة أشبه بتيه تتخبط فيه معالم الطرق وتتمحى الجهات ، أو أشبه بمولود خرج إلى الحياة قبل موعده فخرج وهو ناقص النمو مشوه القسمات !

هذه يا صديقي هي القيود المفروضة التي تتيح للفن كل معاني الحياة . أما تلك القيود الأخرى التي لا نرتضيها للفن لأنها تحد من حريته الطبيعية وحقه المشروع ، فهي تلك الصيحات التي تنطلق من بعض الأفواه منادية بربط الفن إلى عجلة المجتمع أو مزجه ، بأصول علم الأخلاق . وأصحاب المذهب الأول مفرقون

فى الخطأ أو مسرفون فى الوهم ، لأنهم يتخيلون أن المجتمع هو الحياة حين يتحدثون عن الصلة بين الفن والحياة ! إن مصدر الخطأ هنا هو أن الحياة فى مدلولها اللفظى وواقعها المادى ، أوسع مدى وأشمل معنى من المجتمع الذى يريدون للفن ألا يفشر جناحيه بعيدا عن حماه .. إن المجتمع جزء من الحياه وليس هو كل الحياة ، ونضرب لذلك مثلا قصيدة من الشعر يصور بها الشاعر مجلى من مجالى الطبيعة أو نزعة « فردية » من نزعات النفس أو دقة « ذاتية » من دقات الشعور أليس كل جانب من هذه الجوانب التى تخرج عن دائرة المجتمع ، تعبيرا عن الحياة فى وضع من أوضاعها الخاصة التى تفيض بالنبض وتزخر بالخفوق؟ إننا نستطيع أن نلتمس الحياة فى شعر يتحدث عن الصحراء ، وفى قصة تدور حول معالم الذات ، وفى أدب معروف هو أدب الاعترافات ... وكل هذه الألوان الفنية لا تدخل فى نطاق المجتمع الكبير ومع ذلك فهى تؤدى رسالة النقل عن الحياة كأصدق ما يكون الأداء !!

هذا عن أصحاب المذهب الأول ، أما عن أصحاب المذهب الأخلاقى فى الفن فقد رددنا عليهم فى مناسبة سابقة بكلمات للفيلسوف الإيطالى بندتو كروتشه ، وهى كلمات نؤمن بها كل الإيمان لأن فيها الحجة المقنعة والمنطق السليم .. وخلاصة رأى الفيلسوف الإيطالى فى نقد المذهب الأخلاقى فى الفن ، هو أن الفنان لا يمكن أن يوصم من الناحية الأخلاقية بأنه مذنب ، ولا من الناحية الفلسفية بأنه مخطىء ، حتى ولو كانت مادة فنه أخلاقا هابطة ! فهو — كفنان — لا يعمل ولا يفكر ، ولكنه يعبر ... إن فنا يتعلق بالأخلاق أو اللذة أو المنفعة ، هو أخلاق أو لذة أو منفعة ولن يكون فنا أبدا !! ولئن كانت الارادة قوام الإنسان الخير فهى ليست قوام الإنسان الفنان ، ومتى كان الفن غير ناشىء عن الإرادة فهو فى حل كذلك من كل تمييز أخلاقى .

بقى أن نقول للاستاذ الوندارى فى مجال الرد على ما أورده حول قيود القافية فى فن الشعر ، إن هذه القيود كما عرض لها حق لا شك فيه ، من ناحية أنها تفرض على الشاعر لونا من التعبير قد لا يرتضيه . ولكن الأستاذ قد نسى أن تلك القيود لازمة من لوازم الشعر ليكون شعرا ، له ذلك القالب الفنى الذى يميزه عن قالب النثر ويشير إلى ما بين القالبين من فروق !

موسوعة عن الأدباء المعاصرين

... ...

أتشرف باطلاعكم على كونى أقصد أن أطبع فى أقرب وقت كتاب « المختارات » ، فى ستة مجلدات ضخمة ، تحتوى قطعا نثرية وشعرية منتخبة لنحو ثلاثمائة من أشهر الأدباء المعاصرين ، فى كل أقطار العالم العربى .

أرجو أن تتحفنى بشىء من مؤلفاتك لإدراجه فى كتابى ، مع صورتك الشمسية واضحة كل الوضوح ، وملخص سيرتك الأدبية ، أعنى تاريخ ومكان ولادتك ، المدارس التى تهذبت بها ، جدول مؤلفاتك وأهم حوادث حياتك الأدبية .

أشكركم سلفا ، مع إهدائى لكم فائق اعتبارى ودمت .

رفائيل نخلة

« دير اليسوعيين — حلب — سورية »

ليس من شك فى أن هذا العمل الذى يزمع أن يقوم به الأستاذ الفاضل رفائيل نخلة ، وهو إخراج موسوعة ضخمة عن أشهر الأدباء المعاصرين فى العربية ، ليس من شك فى أنه عمل يستحق الإعجاب من ناحية جدواه .. ذلك لأن جدوى الموسوعات الأدبية هى أنها تضع بين أيدينا خلاصة وافية لحياة من تعرض لهم من الأدباء ، مما يتيح للدارسين شيئا من العون حين يشدون دراسة الانتاج الأدبى على ضوء تلك الحياة . أما تلك المتعة الأخرى التى يمكن أن يستشعرها القارىء وهو يتنقل بين قطع مختارة من الشعر والنثر ، فهى متعة تفسح مجالا لا بأس به لجمهرة المتذوقين والنقاد .

هذا هو رأينا فى الموسوعات الأدبية بمناسبة هذه الرسالة التى تلقيناها من الأستاذ الفاضل .. ولكننا نحب أن نلفت نظره إلى حقيقة ليس إلى إنكارها من سبيل ، وهو أن الأستاذ مسرف فى التفاؤل حين يتصور أن فى الأقطار العربية ثلاثمائة من الأدباء ! لا يا سيدى ، إننا يجب أن نقيم الميزان للاديب الحق لا لكل أديب حمل قلما وكتب ... ومن هو الأديب الحق ؟ هو صاحب « المذهب » المعروف لا صاحب الإسم المعروف ، هو — فى كلمة جامعة مانعة — صاحب الأصالة المبدعة لا المحاكاة الناقلة ... إذا نظرنا إلى الأدباء بهذا المنظار فلا مفر من أن يهبط الرقم الذى